**ABES13**

[**قَوَاعِد فِي تَزْكِيَة النَّفْس**](http://al-badr.net/detail/adXgAws7Yrbm)

أحمد الله الكريم بمحامده التي هو لها أهل ، وأثني عليه الخير كله ، لا أحصي ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه ، أحمده تبارك وتعالى على نعمه المتوالية وآلائه المتتالية وأفضاله التي لا تُحصى ، أحمده تبارك وتعالى على كل نعمة أنعم بها علينا في قديم أو حديث ، أو سر أو علانية ، أو خاصة أو عامة ؛ حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى ، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمتنا ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علما ، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، اللهم آت نفوسنا تقواها ، وزكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها.

معاشر الكرام أيها الأحبة : حديثنا في هذه الليلة التي نسأل الله عز وجل فضلًا منه ومنًّا أن يُعظم لنا فيها البركة ، وأن يجعل مجلسنا هذا حجةً لنا لا علينا ، وأن يصلح لنا أجمعين شأننا كله ، حديثنا عن «تزكية النفس» بذكر بعض القواعد المهمة العظيمة في هذا الباب . وكلُّنا يعلم خطورة النفس وعظمَ شأنها ، ويكفي إدراكًا لعظم هذا الأمر ما جاء في سورة الشمس حيث أقسم الله جل وعلا بآياتٍ عظيمات ومخلوقاتٍ متنوعات أقسامًا متعددات على النفس ؛ مفلِحها وغير مفلحها ؛ {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا}[الشمس:9-10 ]، يكفي هذا إدراكًا لعظم هذا الأمر، وأن الواجب على كل إنسان أن تعظم عنايته بنفسه تزكيةً لها ومباعدةً لها عن التدسية

إذ النفوس نفسان :

* نفسٌ شريفة ؛ همُّها المطالب العالية والمنازل الرفيعة والأعمال الفاضلة .
* ونفسٌ دنيئة ؛ تحوم حول الدناءات وحقير الأشياء وخسيسها .

ومن زكى نفسه فقد أفلح ، ومن دساها خاب وخسر ، والحياة الدنيا معترك لهذا الأمر العظيم ، والناس بين مفلح وخاسر ؛ ولهذا كان متأكدًا على كل ناصحٍ لنفسه أن يعمل جاهدًا على تزكيتها وزمِّها بزمام الشرع العظيم وأطرها على الحق أطرا حتى تصبح نفسًا زكية شريفة ، وأن يحذر أشد الحذر من إهمالها والتفريط في شأنها لئلا يبوء بالخيبة والخسران . وهذا الباب -باب تزكية النفس- تكلم فيه أهل العلم كثيرًا وبيَّنوا فيه بيانًا شافيا ، وما سأذكره بإذن الله عز وجل يُعد خلاصات مهمة في هذا الباب العظيم ؛ حيث سأذكر عشر قواعد في تزكية النفوس مع مراعاة الاختصار ، لأن كل قاعدة منها موضع تفصيل والحديث فيها يطول .

**القاعدة الأولى** : أن أصل ما تزكو به النفوس توحيد الله جل في علاه ؛ فهو أصل الأصول وأساس التزكية ، ولا زكاة لنفسٍ بدونه ، وهو الغاية التي خلق الله جل وعلا الخلق لأجلها وأوجدهم لتحقيقها ، قال عز وجل: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[الذاريات:56] ، وقال سبحانه: { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ}[النحل:36] ، وقال تبارك وتعالى: { وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ }[البينة:5]، وقال جل وعلا: { أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}[الزمر:3] ، وقال جل وعلا: { وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ}[الأنبياء:25] والآيات في هذا المعنى كثيرة .

ولقد توعَّد الله جل وعلا من لا يزكي نفسه بتوحيد الله الوعيد الشديد ؛ قال جل وعلا :{ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (6) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ}[فصلت:6-7] ، ومعنى { لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ}في قول أكثر المفسرين كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى أي: لا يوحدون الله ، فالزكاة هنا التوحيد . وبهذا يُعلم أن التوحيد أصل زكاة العباد وأنه لا زكاة لهم بدونه ، فإذا وُجد في العبد عياذًا بالله ضده وهو الشرك بطل كل شيء عند العبد وفسد وفارق الزكاة جملةً وتفصيلا حتى لو قُدِّر أن عنده شيء من الأعمال الصالحة ، قال الله تعالى: { وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[المائدة:5] ، وقال تعالى: { وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ }[الزمر:65] ، وقال تعالى: { وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ}[التوبة:54] .

فتوحيد الله عز وجل أصل التزكية وأساسها الذي عليه تقوم . ومثل التوحيد في تزكيته للنفس كالشجرة التي لا قيام لها ولا نماء إلا على أصلها ، فإن فسد أصلها فسدت ، وإن طاب طابت ، قال الله تبارك وتعالى: { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[إبراهيم:24-25] ، فأصل تزكية النفوس توحيد الله عز وجل ، وضده أصل التدسية والخسران التام في الدنيا والآخرة .

**القاعدة الثانية**: الدعاء مفتاح تزكية النفوس ؛ لأن زكاة النفوس بيد الله جل في علاه، {بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ }[النساء:49] ، { وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ}[النور:21]، وقال تعالى : { وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحجرات:7-8] ، وقال تبارك وتعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا}[النساء:83] ، وقال تعالى: { يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الحجرات:17] فالأمر بيده؛ يهدي من يشاء ويزكي من يشاء ويضل من يشاء ، الأمر أمره والخلق خلقه .

ولهذا كان مفتاح تزكية النفس اللجوء إلى الله جل وعلا ، لا تثق بنفسك ولا بفهمك ولا بعلمك ولا بذكائك وفطنتك ، وإنما الجأ إلى الله عز وجل طالبًا منه جل وعلا أن يزكي نفسك وأن يمن عليك بالزكاء والهداية ؛ فالأمر بيده . قال أحد السلف «تأملت في جماع الخير فإذا الخير كثير الصلاة والصيام وغير ذلك وإذا كل ذلك بيد الله فأيقنت أن الدعاء جماع كل خير» ولهذا من وفق صدقًا للدعاء فقد وفق للخير {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}[البقرة:186] ، قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ }[غافر:60] ، وقال تعالى: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ}[إبراهيم:39] ، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «إني لا أحمل همَّ الإجابة ولكن أحمل همَّ الدعاء» لأن الله تكفل بإجابة من دعاه وصدق في الالتجاء إليه سبحانه وتعالى ، فهو لا يخيب من دعاء ولا يرد من ناداه ، بل جاء في الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ)) ، وقال عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ)) . وفي هذا الباب باب تزكية النفس ثبت في صحيح مسلم من دعاء نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام أنه قال في دعائه: ((اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا ؛ أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا))؛ وهي دعوة عظيمة للغاية جديرٌ بكل مسلم أن يعنى بها مراتٍ وكرات في أيامه ولياليه ، وكان من أكثر دعاء نبينا عليه الصلاة والسلام : ((يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ)) .

**القاعدة الثالثة في هذا الباب** باب تزكية النفوس : هي أن القرآن الكريم هو منبع التزكية وموردها العذب ومعِينها المبارك ؛ فمن أراد زكاة نفسه فليطلبها في كتاب الله ، قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: « تكفَّل الله لمن عمل بالقرآن أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة ، ثم تلا قول الله تعالى {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}[طه:123] » . القرآن الكريم هو كتاب التزكية أنزله جل وعلا لتُتدبر آياته ويُهتدى بهداياته فيزكو بذلك العباد {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}[ص:29] ، { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ } [آل عمران:164] ؛ تلاوةٌ للآيات يترتب عليها زكاة النفوس ، قال الله تبارك وتعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ } [الإسراء:9] .

وزكاة النفس لا تُنال بالقراءة المجردة وإنما تنال بتلاوة القرآن حق التلاوة كما قال الله سبحانه وتعالى : { الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ } [البقرة: 121] ، وتلاوة القرآن حق التلاوة كما أنها تتناول القراءة والفهم للمعاني فإنها تتناول أيضًا العمل بالقرآن ، فمن لم يعمل بالقرآن وإن حفظه كله حفظًا متقنًا لا يُسقط منه حرفا لا يكون من أهل القرآن ، وإنما يكون من أهله باتباع القرآن والعمل به ، ولهذا قال نبينا عليه الصلاة والسلام كما في الصحيح ((يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ)) ؛ بهذا القيد «وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ» ، قال الحسن البصري رحمه الله : «أُنزل القرآن ليُعمل به فاتخذ الناس قراءته عملا» يعني اكتفوا من القرآن بمجرد القرآن ، أي مع التفريط بالعمل الذي أنزل لأجله القرآن . ولهذا من وفقه الله عز وجل للعناية بالقرآن قراءةً وتدبرًا وعقلًا لمعاني القرآن وهداياته ودلالاته وعملًا به فقد تزكى ووُفق للزكاء ونالها لأنه أخذها من معينها ومنبعها وموردها .

**القاعدة الرابعة في هذا الباب** : اتخاذ الأسوة والقدوة ؛ لابد لمن أراد أن يزكي نفسه أن يكون له قدوة يأتمَّ به ويهتدي بسيرته وسلوكه ونهجه ، قد قال الله سبحانه وتعالى : {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[الأحزاب:21] ؛ ولهذا باب التزكية للنفس لابد فيه من سلوك نهج النبي عليه الصلاة والسلام والاهتداء بهديه والاقتداء بسنته والاتباع لسيرته صلى الله عليه وسلم ، فهو إمام المتقين وقدوة عباد الله أجمعين صلوات الله وسلامه وبركاته عليه ، ولما سُئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلق النبي صلى الله عليه وسلم قالت : «كان خُلقه القرآن» والمعنى : أن جميع الأخلاق والآداب والأعمال والخصال التي في القرآن أتى بها عليه الصلاة والسلام على أتم أحوالها وأكملها ، فهو قدوة للعالمين في كل خصال الخير وخلاله . وأصحاب الطرق الباطلة الضالة نحَو بأتباعهم منحىً منحرفًا ضالا حينما ربطوهم بأناس أوردوهم موارد الخرافة والضلال حينما اتخذوهم قدوة . ولهذا باب تزكية النفس ونيل زكاتها لابد فيه من إمام ، والإمام هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، يؤتم به وبمن سار على نهجه وبمن كان متبعًا له ، فمن كان متبعا له عليه الصلاة والسلام يؤتم به لأنه مؤتم بالرسول عليه الصلاة والسلام ، وفي دعوات عباد الرحمن: {رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا}[الفرقان:74] قال أهل العلم : لا يكون المرء إمامًا للمتقين بعده حتى يكون هو في نفسه مؤتمًا بالمتقين قبله . فإذا ائتم بالمتقين صار أهلا لأن يؤتم به ، ولهذا باب القدوة باب مهم جدا ، والقدوة هو رسول الله صلى الله عليه وسلم {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ} [الأحزاب:21] ، فيؤتم به ويؤتم بمن كان مؤتمًا بالرسول صلى الله عليه وسلم لأنه ائتم بالرسول عليه الصلاة والسلام وسار على منهاجه القويم صلى الله عليه وسلم .

وبهذا أيضا يُعلم أن المسالك المدعاة لتزكية النفس عند أصحاب الطرق الضالة هي في حقيقتها تبعد المرء عن الزكاة، ويكفي في ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ )) .

**القاعدة الخامسة في هذا الباب** : أن التزكية تخلية وتحلية ؛ تجمع هذين الأمرين : تخلية وتحلية ، لا تكون الزكاة إلا بهما ؛ تخلية أي للنفس عن الصفات الذميمة والخصال القبيحة والأعمال المشينة والتصرفات الرديئة ، وتحلية لها بطيِّب الخصال وصالح الأعمال وسديدها ، قال الله سبحانه وتعالى: { خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا}[التوبة:103] فذكر الأمرين التطهير والتزكية ؛ التطهير الذي هو تخلية النفس من الصفات الذميمة والخصال السيئة ، وتحليتها أي بطيِّب الخصال وحسن الصفات .

وعليه فإن من أراد أن يزكي نفسه يحتاج في هذا المقام إلى نوعين من المجاهدة : الأول مجاهدة النفس على البعد عن الصفات الذميمة والخصال المشينة ، يقول عليه الصلاة والسلام كما في الترمذي وغيره ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ : {كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[المطففين:14] )) ، ولهذا يحتاج من يزكي نفسه أن يجاهدها أولا على تخليتها من الصفات الذميمة ، ومن ثم تحليتها بطيِّب الخصال وحسن الأعمال.

**القاعدة السادسة في هذا الباب** : إغلاق المنافذ التي تُبعد النفس عن التزكية وتوقعها في التدسية ؛ وهي كثيرة جدًا وخاصة في زماننا ، وتأمل في هذا الحديث الذي في المسند وغيره وهو حديث صحيح قال النبي صلى الله عليه وسلم : ((ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ ، وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ ، وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ : أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلاَ تَعُوجُوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ : وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، قال عليه الصلاة والسلام : وَالصِّرَاطُ الإِسْلاَمُ ، وَالسُّورَانِ : حُدُودُ اللهِ ، وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ : مَحَارِمُ اللهِ ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ : كِتَابُ اللهِ -ولهذا تقدم معنا أن الكتاب العزيز هو كتاب التزكية- وَالدَّاعِي مِنِ فَوْقَ الصِّرَاطِ : وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ)) وهذه من النعم ، المسلم المستمسك بدينه إذا جنحت نفسه إلى شيء من المعاصي يجد في قلبه نفرةً يجد انقباضًا ، لكنه إذا استمرأ المعصية وانغمس فيها تبلَّد هذا الإحساس وتعطل هذا الواعظ في نفسه .

الشاهد من الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم بيَّن في هذا الحديث أن هناك أبواب كثيرة وهذه الأبواب ليس عليها أقفال وكوالين وتحتاج إلى وقت لتُفتح ويُدخل وإنما عليها ستور مرخاة ، وأنت تعلم أن الباب الذي عليه ستارة لا يأخذ وقت في الدخول ، الداخل يلمسه بطرف كتفه ويدخل . فإذًا الانحراف والانزلاق إلى خارج الصراط من هذه الأبواب أمرٌ خطِر ؛ ولهذا يحتاج العبد الذي يهمه أمر زكاة نفسه أن يحذر من هذه المنافذ والمداخل . أرأيت إن كنت في بيتك ونافذة البيت مفتوحة أو في سيارتك ونافذة سيارتك مفتوحة فمررت بمكان فيه رائحة مؤذية كيف أنك تبادر إلى إغلاق النافذة حتى لا تصل إليك الرائحة !! سلامة الدين أهم ، وإغلاق المنافذ التي تُعطب الدين وتفسده أهم ، وصيانته أولى ، ورعايته مقدَّمة ؛ ولهذا لابد من التنبيه أن قضية المنافذ التي تحرف الإنسان عن الصراط المستقيم استجد منها في زماننا هذا نوع من المنافذ لم يكن له وجود في زمان سابق وهي المنافذ التي في الأجهزة الحديثة عندما يفتح الإنسان جواله التي تسمى «الأجهزة الذكية» وفيها ذكاء ولكن الزكاء عليه خطر مع هذه الأجهزة إلا من سلَّمه الله ، لأن فيها منافذ كثيرة جدا ، أحيانا يدخل الإنسان ليبحث عن معنى آية في القرآن أو معنى حديث في القرآن وإذا به في وادٍ من أودية الضلال بل أودية ، وكل شيء منها يجر إلى آخر ، إذا لم يمسك المرء بنفسه رعايةً لزكاتها ومحافظة عليها أهلكته هذه الأجهزة بما فيها من منافذ خطيرة جدًا. ولهذا من أهم ما يكون في هذا الباب باب تزكية النفس العمل على إغلاق المنافذ ، العوام لهم كلمة جميلة في هذا الباب يقولون : "الباب اللي يجيك منه ريح سدَّه واستريح" ، هذا حقيقةً هو مبدأ مهم في باب تزكية النفس ، أما أن يطلق الإنسان لبصره العِنان وسمعه ثم بعد ذلك يقول قلبي فيه وفيه !! القلب إنما يتغذى من البصر والسمع { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}[الإسراء:36] .

**القاعدة السابعة في هذا الباب** باب تزكية النفس : تذكر الموت وما بعده ؛ قال الله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ}[الحشر:18] ، والآية تُعدُّ أصلًا عظيًما في هذا الباب باب التزكية للنفس والمحاسبة لها ، ويقول نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام : ((أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَّاتِ)) يعني الموت . قال سعيد بن جبير رحمه الله : «لو فارق ذكر الموت قلبي لخشيت على قلبي أن يفسد » . والموت : هو الحد الفاصل بين الدنيا والآخرة ، بين دار العمل ودار الجزاء على العمل ، «فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ» ، وتذكُّر الموت نافع جدًا للعبد في تزكية نفسه ، «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الْمَسَاءَ» هذا مهم جدا في باب تزكية النفس ؛ أن يذكِّر المرء نفسه بالموت ، والموت آتٍ ولا يدري المرء متى إتيانه ، قد يكون المرء شابًا يؤمِّل أن يجاوز في العمر السبعين ولا يدري أن موته في الغد أو في اليوم نفسه {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ}[لقمان:34] فلا يغتر شاب بشبابه ولا صحيح بصحته ولا قوي بقوته ، بل ينبغي أن يذكر نفسه بالموت وما بعده ليُعد ما بعد الموت العدة {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}[البقرة:197] ، روى سفيان ابن عيينة عن إبراهيم التيمي رحمه الله قال : «تمثلت -يعني تخيلت وتصورت- أنني في الجنة آكل من ثمارها واشرب من أنهارها وأعانق أبكارها ، ثم تخيلت نفسي أنني في النار أعاني من حميمها وغساقها وآلامها ، ثم خاطبت نفسي وأنا في هذا التصور والتخيل قلت : يا نفس ماذا تريدين ؟ قالت أريد أن أرجع إلى الدنيا لأعمل صالحًا غير الذي كنت أعمله ، فقلت لها : يا نفس أنت الآن في الأمنية فاعملي» ؛ فعلًا هذا كلام عظيم جدا، وقل أيضا لنفسك : يا نفس إن أنا مت من يصلي عني ؟ من يصوم عني؟ من يتوب إلى الله عني من تفريطي وتقصيري في جنب الله سبحانه وتعالى؟ وماذا تنفع الحسرة والندامة للمرء إذا لقي الله عز وجل بذنوبه وخطاياه ومعاصيه . فالحاصل أن ذكر الموت وما بعده أمرٌ غاية في الأهمية في باب تزكية النفس .

**الأمر الثامن** : تخير الجلساء والرفقاء والأصحاب ؛ فإن الصاحب ساحب ومؤثر في صاحبه ولابد ، والله تعالى يقول: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}[الكهف:28] ، وفي هذا الباب يقول نبينا عليه الصلاة والسلام كما في سنن أبي داود وغيره ((الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ)) ؛ «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ» أي أن الخليل مؤثر في خليله ولابد ، ولهذا قال ابن مسعود «اعتبروا الناس بأخدانهم» لأن الصاحب يؤثر في صاحبه والجليس يؤثر في جليسه ، «فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ» أي أن هذا الباب بابٌ ينبغي أن يتفقه فيه المرء فلا يصاحب كل أحد ، قال الحسن البصري : «ليس للمؤمن أن يصاحب كل من شاء» وإنما يصاحب من يعينونه على الخير ويشدون من أزره على طاعة الله سبحانه وتعالى ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (( مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً )) .

**الأمر التاسع في هذا الباب** : الحذر الشديد من التزكية للنفس بمعنى ادِّعاء زكاة النفس ، مهما أوتي الإنسان من طاعة وعبادة وعمل فعليه في كل أحواله أن يرى نفسه مقصرًا كما قال الله تعالى : {فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}[النجم:32] ، ولهذا فإن الله جل وعلا ذكر في صفات المؤمنين الكمَّل في سورة المؤمنون قال : {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ(60)} والمعنى : يقدِّمون ما يقدِّمون من طاعات وقلوبهم خائفة ألا تُقبل منهم ، جاء في المسند وغيره أن عائشة رضي الله عنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن معنى هذه الآية قالت :يا رسول الله أَهُوَ الَّذِي يَزْنِي وَيَسْرِقُ وَيَشْرَبُ الْخَمْرَ ؟ قَالَ لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ ، وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ يَصُومُ وَيَتَصَدَّقُ وَيُصَلِّي وَهُوَ يَخَافُ أَنْ لَا يُتَقَبَّلَ مِنْهُ)) الله يقول : { إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ }[المائدة:27] ، وتأمل في هذا الباب قول الله سبحانه وتعالى : { وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ }[البقرة:127] ، نقل ابن كثير عند هذه الآية عن وهيْب بن الورد «أنه قرأ هذه الآية وبكى قال: خليل الرحمن ويبني بيت الرحمن بأمر الرحمن وهو خائف ألا يُقبل!! » ، صديق الأمة رضي الله عنه كما في الصحيحين قال للنبي صلى الله عليه وسلم : «عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي وفي رواية وبيتي »فماذا علمه ؟ قَالَ: ((قُل: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّك أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)) ، وليُعلم أن أبا بكر رضي الله عنه هو أفضل الناس بعد النبيين في كل الأمم ، ليس فقط هو أفضل أمة محمد عليه الصلاة والسلام بل هو أفضل الناس بعد النبيين في كل الأمم رضي الله عنه وأرضاه . فالعبد في هذا الباب -باب التزكية للنفس- يجتهد مع نفسه في تكميل العمل ورعايته لنفسه والعمل على إصلاحها لكن لا يزكي نفسه ، بل في كل مرة يرى أنه لا يزال مقصرًا لا يزال مفرطًا ، إن لم يكن كذلك أصابه والعياذ بالله داء العُجب ودخل في الرياء وأعمال من الأعمال التي هي من خوارم النية وموجبات فساد العمل ، فالعبد في هذا المقام يعمل على إصلاح نفسه لكن لا يزكي نفسه ، يقول الحسن البصري : «المؤمن جمَع بين إحسانٍ ومخافة ، والمنافق جمع بين إساءةٍ وأمْن» .

**القاعدة العاشرة** : معرفة النفس وصفاتها ؛ فإن هذا فيه عون للمرء على سياستها وإصلاحها . والنفس لها صفات وجاء ذكرها في القرآن وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام فيحتاج العبد في مقام التزكية للنفس أن يعرف النفس وأن يعرف صفات النفس ، قد ذكر الله جل وعلا للنفس في القرآن ثلاث صفات :

1. فذكر سبحانه وتعالى النفس المطمئنة {يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً}[الفجر:27-28] نسأل الله لنا أجمعين من واسع فضله ، قال تعالى : { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }[الرعد:28] ، النفس المطمئنة: هي التي اطمأنت وسكنت بطاعتها لله وذلها بين يديه وخضوعها له سبحانه وتعالى وامتثالها لأوامره .
2. وذكر سبحانه وتعالى النفس اللوامة { وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ }[القيامة:2] ، والنفس اللوامة: هي التي تلوم صاحبها على تقصيره في واجب أو ارتكابه لمحرم ، وهذا من علامات الخير في النفس ، لكن إذا تمادى في عصيانه وآثامه تعطل هذا المعنى ولم تصبح حينئذ نفسه لوامةً كما مر معنا في الحديث المتقدم قال ((ذلك وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ)) .
3. والصفة الثالثة من صفات النفس : النفس الأمارة بالسوء { إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي}[يوسف:53] والنفس الأمارة بالسوء : هي التي تأمر صاحبها بالشر والفساد وتستحثه على المعاصي والآثام وتورده المهالك .

هذه صفات للنفس بحسب أحوالها ، ولهذا في اليوم الواحد قد تكون النفس لوامة ثم تصبح مطمئنة والعكس كذلك ، كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : ((يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِى كَافِرًا أَوْ يُمْسِى مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا)) هذه أحوال للنفس في تقلباتها ، فإذا عرف المرء صفات النفس يتفقد نفسه ويتأمل في أحوالها وصفاتها ؛ هل هي أمارة بالسوء؟ فإن كانت كذلك فليعلم أن في طاعته لها هلاكه وعطبه في الدنيا والآخرة ، وإن كانت نفسًا اطمأنت بطاعة الله يحمد الله على هذا الفضل العظيم ويسأل الله الثبات على ذلك ، ويحذر من المنعطف والانحراف سائلا ربه سبحانه وتعالى أن يثبته على الحق والهدى .

أسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يوفقنا أجمعين لكل خير ، اللهمَّ آت نفوسنا تقواها، وزكِّها أنت خير مَن زكَّاها ، أنت وليُّها ومولاها، اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفة والغنى ، اللَّهمَّ اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنَّتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدُّنيا، اللَّهمَّ متِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوَّتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منَّا، واجعل ثأرنا على مَن ظلمنا، وانصرنا على مَن عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدُّنيا أكبر همِّنا ولا مبلغ علمنا، ولا تسلِّط علينا مَن لا يرحمنا.

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صلّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.